المحاضرة الثالثة: نصوص من خطب صدر الإسلام د. طارق زيناي

تمهيد: إذا عصر صدر الإسلام كما أسلفنا هو ما يشمل عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين الذي ينتهي باستشهاد الخليفة الرابعة علي بن أبي طالب ﷺ سنة 41هـ، فإن هذه المحاضرة ستتناول نصوصا نبوية، نصوصا للخلفاء الراشدين بحسب ما وصلنا عنهم في كتب السيرة والحديث والتاريخ والأدب.

الخَطَابَةُ النَّبوِيَّةُ :

لا خلاف في أن المصطفى ﷺ قد جاء هاديا مهديا بعثه الله للعرب والناس كافة ليخرجهم من الظلمات إلى النور، وقد حباه الله بالفصاحة والبلاغة بما ليس لغيره من البلغاء والفصحاء، فكان خطيبا مفلقا وواعظا مؤثرا، ولعل الذي وصلنا في خطبه أنه كات تارة يطيل الخطبة وتارة يوجزها على حسب الداعي والمقتضى، والملاحظ أن كتب الأدب لن تحفظ لنا من هذا التراث إلا خطبا قليلة بالقياس مع ما يفترض أنه خطب به الناس في الجمع والأعياد والنوازل المختلفة، وفيما يلي بعض منها :

فعن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف : «كَانَتْ أَوَّلُ خُطْبَةٍ خطَبها رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلَّم بالْمدينة أَنَّه قام فيهم فَحمدَ الله وأَثْنى عَلَيه بِمَا هو أَهْلُه ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بعدُ أَيُّها النَّاس فَقَدِّموا لأَنْفُسكُمْ، تَعلَمنَّ والله لَيَصعقَنَّ أَحدُكُم، ثُمَّ لَيدعنَّ غنمه لَيس لَها رَاعٍ، ثُمَّ لَيقولَنَّ له ربُّه لَيس له تَرجمانٌ ولَا حاجَبٌ يَحجبَه دونه: أَلَم يأْتكَ رسولي فَبلَّغَك، وآتيتك مالًا، وأَفْضلْت عَليك، فما قَدَّمت لنَفْسك فَلينْظرنَّ يَمينًا وشمَالًا فَلا يرى شيئًا، ثُمَّ لَينْظرنَّ قُدَّامه فَلا يرى غَير جهنَّم، فَمن استطَاع أَنْ يقي وجهه من النَّارَ ولَو بشقِّ تَمْرة فَلْيَفْعلْ، ومن لَم يَجدْ فَبكَلمة طَيِّبة فَإنَّ بها تُجزى الْحسنَة عشر أَمْثَالها إلَى سَبْعمائة ضعف والسَّلَام عَليكُم »[1]

وعن أبي إسحاق قال : « خطَب رسولُ اللَّه صلَّى الله عَلَيْه وسلَّم النَّاس مرَّةً أُخرى، فَقَالَ: إنَّ الْحمدَ للَّه، أَحْمده وأَستعينه، نعوذُ بالله من شُرور أَنْفسنا، وسيئات أَعْمالنا، مَن يهده اللَّه فَلا مُضلَّ له، ومن يُضْلل فَلا هادي له، وأَشْهدُ أَنَّ لَا إله إلَّا اللَّه وحده لَا شَريكَ لَه. إنَّ أَحسنَ الْحَديث كَتَاب اللَّه تبارَك وتعالَى، قَدْ أَفْلَح من زَيَّنه اللَّه في قَلْبه، وأَدخلَه في الْإسْلَام بعدَ الْكُفْر، واختاره علَى ما سواه من أَحَاديث النَّاس، إنَّه أَحسن الْحَديث وأَبلَغه، أَحبُّوا ما أَحَبَّ اللَّه، أَحبُّوا اللَّه من كُل قُلُوبكُم، ولَا تَمَلُّوا كَلَام اللَّه وذكْره، ولَا تَقْسَ عنه قُلُوبكُم، فَإنَّه من كُل ما يَخْلُق اللَّه يَخْتار ويَصْطَفي، قَدْ سَمَّاه اللَّه خيرته من الْأَعْمال، ومصطَفَاه من الْعباد، والصَّالح من الْحَديث، ومن كُل ما أُوتي النَّاس [1] الْحَلَالُ والْحرام، فَاعبدوا اللَّه ولَا تشركُوا به شَيئًا، واتَّقُوه حَقَّ تُقَاته، واصدقُوا اللَّه صَالح مَا تَقُولُون بأَفْواهكُم، وتَحابُّوا بروح اللَّه بينكُم، إنَّ اللَّه يغْضب أَنْ ينْكَث عهده، والسَّلَامُ عَلَيكُم »[2]

---

[1] – أبو بكر البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، ج02، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، 1405هـ، ص 524.

[2] – أبو مُحَمَّد عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ج01، تح : مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط02، 1955، ص 500.

وغير خاف علينا خطبة حجة الوداع التي تعدُّ أطول خطبه ﷺ، والتي لم نذكرها لشهرتها بين الناس.

خُطَبُ الخُلَفَاء الرَّاشدين :

ما قبض ﷺ والتحق بالرفيق الأعلى حتى ترك أصحابه من بعده « مشبعين بنور الإيمان، تمثل الإسلام في عقولهم وقلوبهم، ومنهم الخلفاء الراشدين، الذين استلموا زمام الأمور، وكانت خطبهم استمرارا لترسيخ التعاليم الإسلامية في نفوس الناس، وللعمل على نشر تلك التعاليم في مشارق الأرض ومغاربها »[1] ولهذا اتبعوا طريقه وهديه ﷺ، فكانوا خطباء مصقعين، جعلوا من الخطبة وسيلة لنشر الدين وتبليغ الدعوة، وفيما يلي سنمثل بجملة من خطب الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم :

أ/ خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه :

فعن عبدَ الرَّزَّاق، عن مَعْمر، قَالَ: حدَّثَني بعض أَهْلِ الْمَدينَة، قَالَ: خطَبَنا أَبو بَكْر فَقَالَ: « يا أَيُّها النَّاس إِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَليكُم وَلَست بخَيْرِكُم، فَإِنْ ضعفْت فَقوموني، وإِنْ أَحسَنْت فَأَعينُوني، الصِّدْقُ أَمانَةٌ، والْكَذب خيانَةٌ، الضَّعيفُ فيكُم الْقَويُّ عنْدي حَتَّى أُزيح عَليه حقَّه إِنْ شَاء اللَّه، والْقَويُّ فيكُم الضَّعيفُ عنْدي حتَّى آخذَ منْه الْحَقَّ إِنْ شَاء اللَّه، لَا يدع قَوم الْجهَاد في سبيل اللَّه إِلَّا ضربهم اللَّه بالْفَقْر، ولَا ظَهَرت - أَو قَالَ: شَاعَت - الْفَاحشَةُ في قَوم إِلَّا عمَّمهم الْبلَاء، أَطيعُوني ما أَطَعت اللَّه ورسوله، فَإِذَا عصيت اللَّه ورسوله فَلَا طَاعَةَ لي عَليكُم، قُوموا إِلَى صَلَاتكُم يَرحَمكُم اللَّه »[2]

ب/ خطبة عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

من المعلوم أن خلافة عمر رضي الله عنه كانت خلافة فتحٍ وغزو، ولهذا كثرة خطبه ووصاياه من ذلك ما كان يقوله عند عقد الألوية: « باسم الله وبالله وعلى عون الله، امضوا بتأييد الله والنصر ولزوم الحق والصبر، فقاتلوا فى سبيل الله من كفر بالله، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين. ولا تجبنوا عند اللقاء، ولا تمثلوا عند القدرة، ولا تسرفوا عند الظهور، ولا تقتلوا هرما ولا امرأة ولا وليدا، وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان وعند شن الغارات »[3]

ج/ خطبة علي رضي الله عنه:

إذا كان عثمان رضي الله عنه من أقل الخلفاء خطابة، فإن عليا رضي الله عنه من أكثرهم خطبا، ومن أبرعهم وأقدرهم عليها، حتى إن نهج البلاغة يضم عددا كثيرا منها، منها ما هو صحيح النسبة، ومنه ما هو مشكوك في نسبته إليه، من ذلك خطبته

---

[1]- واضح الصمد، أدب صدر الإسلام، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط01، 1994، ص160.

[2]- أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، ج07، تح : عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط01، 2000، ص 571.

[3]- شهاب الدين النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج06، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، مصر، ط01، 1423 هـ، ص 170.

أثناء معركة صفين بين جيشه وجيش معاوية التي يقول فيها : « اللَّهمَّ رب السقف المرفوع، المحفوظ المكفوف، الَّذي جعلته مغيضا لليل والنهار، وجعلتفيه مجرى الشمس والقمر ومنازل النجوم، وجعلت سكانه سبطا من الملائكة، لا يسأمون العبادة ورب هَذه الأرض الَّتِي جعلتها قرارا للأنام، والهوام والأنعام، وما لا يحصى مما لا يرى ومما يرى من خلقك العظيم ورب الفلكَ التي تجري فِي البحر بمَا ينفع الناس، ورب السحاب المسخر بين السماء والأرض، ورب البحر المسجور المحيط بالعالم، ورب الجبَال الرواسَي الَّتِي جعلتها للأرض أوتادا، وللخلق متاعا، إن أظهرتنا علَى عدونا فجنبنا البغي، وسددنا للحق، وإن أظهرتهم علينا فارزقني الشهادة، واعصم بقية أَصحابي من الْفتنَة »[1]

[1]- مُحَمَّد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)، ج05، دار التراث، بيروت، لبنان، ط02، 1387 هـ، ص 14- 15.